

تفسير سورة الشورى

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ عَسَقٌ ﴾ كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ إِسْمِعُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة.

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى: كما انزل إليك هذا القرآن، كذلك انزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك. وقوله: ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ أى: فى انتقامه، ﴿ الْعَزِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله. روى الإمام مالك عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال. وأحياناً يأتينى الملك رجلاً فيكلمنى، فأعى ما يقول». قالت عائشة: فلقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليخصد عرقاً. أخرجاه فى الصحيحين، ولفظه للبخارى (١). وقد رواه الطبرانى عن الحارث بن هشام؛ أنه سأل رسول الله ﷺ: كيف ينزل عليك الوحي؟ فقال: «مثل صلصلة الجرس؛ فيفصم عنى وقد وعيت ما قاله» قال: «وهو أشده علىّ» قال: «وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى، فأعى ما يقول» (٢).

وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: الجميع عبيد له وملك له، تحت قهره وتصريفه، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ [الرعد: ٩]، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبا: ٢٣]، والآيات فى هذا كثيرة. وقوله: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدى: أى فرقاً من العظمة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ كقوله: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. وقوله: ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾: إعلام بذلك وتنويه به.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى: المشركين، ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويمدها عدداً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل.

(١) الموطأ (٢٠٢/١) والبخارى (٢) ومسلم (٢١٠/٢٣٣٣).

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٩/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٩/٨): «رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما ثقات».

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الانبياء قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: واضحا جليا بينا ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ وهى مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لادلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - وهو واقف بالحرزوة فى سوق مكة: «والله، إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت». وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فى وقوعه، وأنه كائن لا محالة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، كقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجُمُعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّفَافِينِ﴾ [التناب: ٩] أى: يعين أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ. وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مُعَدَّدٍ. يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْ شَاءَ وَسِعِدَ﴾ [مرد: ١٠٣-١٠٥]. روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله. قال للذى فى يده اليمنى: «هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: «هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم، لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فإلى شىء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل الجنة، وإن عمل أى عمل، وإن صاحب النار ليختم له بعمل أهل النار، وإن عمل أى عمل» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: «فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير». وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى نصره، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله، دخل عليه أصحابه يعمدون وهو يبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟ ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض يمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدري فى أى القبضتين أنا (٣). وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا.

(١) المسند (٣٠٥/٤) والترمذى (٣٩٢٥) والنسائى فى الكبرى (٤٢٥٢) وابن ماجه (٢١٠٨).

(٢) المسند (٦٥٦٣) والترمذى (٢١٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٧٣). وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (١٧٦/٤)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٨٨/٧): «رجال رجال الصحيح».

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَكُنْ يَدْخُلُ مِنْ يُشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَبِيلٍ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذْنَا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاَللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَمْ يَمْلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرًا أنه الولي الحق الذي لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام في جميع الأشياء، ﴿ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبيه ﷺ، كقوله: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي ﴾ أى: الحاكم في كل شيء، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى: أرجع إليه في جميع الأمور.

وقوله: ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منة عليكم وتفضلاً جعل من جنسكم ذكراً وأنثى، ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. ﴿ يَذُرُّوكُمْ فِيهِ ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوي: ﴿ يَذُرُّوكُمْ فِيهِ ﴾ أى: في الرحم. وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلق. قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أى: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

وقوله: ﴿ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نُنزِّلُ الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ مِنْ الْأَمْرِ بَعَثْنَا بَيْنَهُمْ وَنُوحًا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّقَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي سَكْرَةٍ مِنْهُ مُرْسِبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ فذكر أول الرسل بعد

آدم، عليه السلام، وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الاحزاب» عليهم فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْ نُوْحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الاحزاب: ٧].

والدين الذى جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا يُوْحَىٰ﴾ (١) إِلَهِهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥]. وفى الحديث: «نحن معشر الانبياء اولاد علات ديننا واحد (٢)» أى: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] ، ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقْبَهُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾ أى: وصى الله تعالى جميع الانبياء، عليهم السلام، بالاتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: شق عليهم وانكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ أى: هو الذى يُقَدِّرُ الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعاً: ﴿وَأَنْ الَّذِينَ أَوْرَثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعنى: الجيل المتأخر بعد القرن الاول المكذب للحق ﴿فَلَمَّا شَكَرْنَا مِنْهُ رَبُّهُمْ﴾ أى: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان، وهم فى حيرة من أمرهم، وشك مرعب، وشقاق بعيد.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعَ وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التى قبلها، حكم برامها، قالوا: ولا نظير لها سوى آية الكرسي، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه. قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَّعَ﴾ أى: فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ أى: واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله، كما أمركم الله عز وجل ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعنى: المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه، وافتروه من عبادة الأوثان. ﴿وَقُلْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أى: صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الانبياء، لا نفرق بين أحد منهم.

وقوله: ﴿ وَأَمْرٌ لِأَعْدِلِ بَيْنَكُمُ ﴾ أى: فى الحكم كما أمرنى الله ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى: هو المعبود، لا إله غيره، فنحن نقر بذلك اختياراً، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً، فله يسجد من فى العالمين طوعاً واختياراً ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أى: نحن برآء منكم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] . وقوله: ﴿ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ قال مجاهد: أى لا خصومة. قال السدى: وذلك قبل نزول آية السيف. وهذا متجه؛ لأن هذه الآية مكية، وآية السيف بعد الهجرة ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى: يوم القيامة، كقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا: ٢٦] . وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى: المرجع والمآب يوم الحساب.

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُنُودٌ دَاخِصَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُعَارَضُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى - متوعدا الذين يصلون عن سبيل الله من آمن به: ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ ﴾ أى: يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى، ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاخِصَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: باطلة عند الله ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ أى: منه ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى: يوم القيامة. قال ابن عباس، ومجاهد: جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله، ليصدوهم عن الهدى، وطعموا أن تعود الجاهلية. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، قالوا لهم: ديننا خير من دينكم، وبينا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وأولى بالله منكم. وقد كذبوا فى ذلك. ثم قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى: الكتاب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو: العدل والإنصاف، قاله مجاهد، رقتادة. وهذه كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، وقوله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧-٩] . وقوله: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ : فيه ترغيب فيها، وترهيب منها، وتزهد فى الدنيا.

وقوله: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ أى: يقولون: ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [سبا: ٢٩] ، وإنما يقولون ذلك تكديبا واستعبادا، وكفراً وعناداً، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ أى: خائفون ورجلون وقوعها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى: كائنة لا محالة، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها. وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر، فى الصحاح والحسان، والسنن والمسائيد، وفى بعض ألفاظه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهورى، وهو فى بعض أسفاره، فناداه فقال: يامحمد. فقال له النبى ﷺ نحوا من صوته «هاوم». فقال: متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك، إنها كائنة، فما أعددت لها؟». فقال: حب الله ورسوله. فقال: «أنت مع من أحببت» (١). فقوله فى الحديث: «المرء مع من أحب»، هذا متواتر لا محالة، والغرض: أنه لم يجه عن وقت الساعة، بل أمره بالاستعداد لها.

وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ ﴾ أى : يحاجون فى وجودها ويدفعون وقوعها ، ﴿ نَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى جهل بين ؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادرٌ على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ، يُرِزُّكَ مِنْ بَشَاءٍ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَقِعَ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحداً منهم، سواء فى رزقه البرِّ والفاجر، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. ولها نظائر كثيرة. وقوله : ﴿ يُرِزُّكَ مِنْ بَشَاءٍ ﴾ أى : يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أى : لا يعجزه شيء.

ثم قال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أى : عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى : نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر ثمائه، ونجزيه بالחסنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أى : ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية، حرَّمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التى فى «سبحان» وهى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بشر هذه الأمة بالسَّاءِ والرفعة، والنصر والتمكين فى الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له فى الآخرة من نصيب» (١).

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أى : هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التى كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحریم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «رايت عمرو بن لُحى بن قَمْعَةَ يَجُرُّ قُصْبَهُ فى

(١) المسند (١٣٤/٥) والحاكم فى المستدرک (٣١١/٤) وصححه ووافقه الذهبى. رَوَاهُ الْبَغْوِيُّ فى شرح السنة (٤١٤٤).

النار» (١). لانه أول من سبب السوابب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حمل قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْلًا كَلِمَةً الْفَصْلِ قَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى: لموجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المماد، ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجع فى جهنم ويش المصير.

ثم قال تعالى: ﴿تَرَىٰ الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿وَهُوَ وَأَقْبَعُ بِهِمْ﴾ أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الحرف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ، فإين هذا من هذا ؟ أين من هو فى العرصات فى اللذ والهوران والحرف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاه من مآكل ومشارب وملابس ومسكن وناظر وملك وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَعْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفؤ العظيم، والنعمة التامة السابقة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَدَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَن قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْأَبْطِلَ وَيُحْيِي الْحَيَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفر قريش: لا أسالكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات ربي، إن لم تنصرونى فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة. روى البخارى عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ ، فقال سعيد بن جبيرة: قريى آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفرد به البخارى. ورواه الإمام أحمد (٢). وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وغيرهم. وقول ثان يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقرىكم عند الله زلفى. وروى عن الحسن البصرى مثله. وقول ثالث عن سعيد بن جبيرة، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابى، أى: تحسوا إليهم وتبروهم.

والحق تفسير الآية بما فسرنا به الإمام حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى ، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين

(١) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (١٠٣) من سورة المائدة .

(٢) البخارى (٤٨١٨) . وهو فى المسند (٢٠٢٤) .

للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بِقَدِيرِ خُمٍّ: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وهترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» (١). وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم يبشرون، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها؟ قال: فغضب النبى ﷺ غضباً شديداً، وقال: «والذى نفسى بيده، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحكم الله ولسوله» (٢). وروى البخارى عن أبى بكر الصديق، قال: أرقبوا محمداً ﷺ فى أهل بيته (٣). وفى الصحيح: أن الصديق قال لعلى: والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتي (٤). وقال عمر بن الخطاب للعباس، رضى الله عنهما: والله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.

فحال الشيخين، رضى الله عنهما، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضى الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين.

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن حبان قال: انطلقت أنا وحسين بن ميسرة، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ، وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصليت معه. لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً. حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. فقال: يابن أخى، والله كبرت سنى، وقدم عهدى، ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوه، وما لا فلا تكلفونه. ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا، بما يدعى خُمًّا - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين، أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، وقال: «وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتى». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ ليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: إن نساءه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل على، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس. قال: أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. وهكذا رواه مسلم (٥). وروى الترمذى عن زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، والآخر هترتى: أهل بيتى، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما». تفرد بروايته الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن غريب (٦). وروى الترمذى أيضاً عن جابر بن عبد الله، قال: رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء يخطب، فسمعتة يقول: «يا أيها الناس، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله،

(١) مسلم (٢٤٠٨).

(٢) المسند (١٧٧٢، ١٧٧٣) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) البخارى (٣٧١٣).

(٤) البخارى (٣٧١٢).

(٥) المسند (٣٦٦/٤) ومسلم (٣٦/٢٤٠٨).

(٦) الترمذى (٣٧٨٨) وصححه الألبانى.

جرير: معناه: يستجيب لهم الدعاء ولاصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبي حاتم عن سلمة بن سيرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تسبون من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعنى أحدهم عملا - قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَخْفَهُمُ اللَّهُ﴾ [الانعام: ٣٦] والمعنى الاول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك. وقال قتادة عن إبراهيم النخعي اللخمي فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم.

وقوله: ﴿وَتَوَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَقَوْمًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا وبطرا. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وقوله: ﴿وَلَكِنْ نُنزِلُ بَقْدَرًا مِمَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَعِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره بما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَأَن كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِهِ لَمُبْسِينَ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قحط المطر وقنط الناس؟ فقال عمر: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُمْسِكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانة القاهر ﴿خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: ذرا فيهما، أى: فى السموات والارض، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الارض والسموات، ﴿وَهُوَ﴾ مع هذا كله ﴿عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الاولين والآخرين وسائر الخلاق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، وينفذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَتَوَلَّى يُوَاحِدِ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حَزَنٍ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها» (١). عن على، قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾. وسأفسرها لك يا على: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فيما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يثبتي عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فאלله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوه». رواه الإمام أحمد (٢). وروى الإمام أحمد عن معاوية - هو ابن أبى سفيان - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شئ يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته» (٣).

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظَلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالِي ظَهْرِهِ ﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْجِرٍ ﴿

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالاعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك، أى: هذه فى البحر كالجبال فى البر، ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ ﴾ أى: التى تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تحيى ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى: فى الشدائد ﴿ شَكُورٍ ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، للدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿ شَكُورٍ ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى: ولو شاء لاهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لاهلك كل من ركب البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى: لو شاء لارسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرقتها ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقت لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطف ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم.

وقوله: ﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحْجِرٍ ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونعمتنا، فإنهم

(١) البخارى (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٥٢/٢٥٧٣).

(٢) المسند (٦٤٩) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده حسن».

(٣) المسند (٩٨/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد: «رجال أحمد رجال الصحيح».

مقهورون بقدرتنا .

﴿ فَأُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلٍ فَكَفَرُوا بِالدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَلْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرًا أَثْمًا وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمِ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى محفرا لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوتِيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قَلِيلٍ فَكَفَرُوا بِالدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغفروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنية فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باقى سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرًا أَثْمًا وَالْفَوَاحِشَ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى سورة الاعراف ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجيتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمت الله (١). وفى حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ماله؟ تربت جبينه» (٢).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: أتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا رجوه، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يبرمون أمرا حتى يشاوروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام، يشاورهم فى الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار عن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام من بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَتُوبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ تَبْغُرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]، مع قدرته على مواخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التعميم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن عورث بن الحارث، الذى أراد الفتك به عليه السلام حين اختلط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صلتا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن

(٢) البخارى (٦٠٣١).

(١) البخارى (٦١٢٦).

الاعصم، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت مرحب اليهودى الحيرى الذى قتله محمود بن مسلمة - التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخيره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ما حملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يفرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والاحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا نَسَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا»، كقوله تعالى: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» وقوله: «وَلَمَّا نَسَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» الآية [النحل: ١٢٩]، فشرح العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله: «وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاتنا: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما راد الله عبدا بمغو إلا عزاء» (١). وقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة.

ثم قال تعالى: «وَلَمَّا نَسَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ» أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار عن ظلمهم. روى النسائى وابن ماجه عن عروة قال: قالت عائشة: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: «حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذُرْبَيْتَيْهَا» ثم أقبلت على المحرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد ييس ريقها فى فمها، ما لرت على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائى (٢).

وقوله: «إِنَّمَا السَّبِيلُ» أى: إنما الحرج والعنت «عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِي مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ» (٣). «أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى: شديد موجه.

ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرح القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: «وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ» أى: صبر على الأذى وستر السيئة، «إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» قال سعيد بن جبیر: يعنى: لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رجلا شتم أبى بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسّم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر

(١) الترمذى (١٠٢٩) وقال: «حسن صحيح» .

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٤٧٦) وابن ماجه (١٩٨١) وفى روائد البوصيرى: «هذا إسناد صحيح على شرط مسلم»، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٢٥٨٧ / ٦٨) .

فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقلت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها الله، إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود (١). وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى، وهو مناسب للصديق رضى الله عنه.

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِئٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ ظَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى: يوم القيامة تمنا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُوا عَلَى النَّارِ فَعَالُوا يَا تَبَّتْ أَرْؤُاؤُنَا مَا لَنَا بِنَارِكُمْ مِنْ عَذَابٍ يُعَذِّبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى: على النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِّ ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ ظَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو اعظم مما فى نفوسهم، اجارنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم واحبابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى: دائم سرمدى أبدى، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: يتقنونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ أَلْبَسْنَا وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبَهَا وَإِنَّ نُصْنَمُ سَيْنَتُهُ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: إذا امر بكونه فإنه كالمح البصر

يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يُوَفِّدُكُمْ بَصْرَهُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أى: ليس لكم حصن تحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتكبرون فيه، فتضيئون عن بصره، تبارك وتعالى، بل هو محيط بكم يعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يُؤَفِّدُ الْمُسْتَظِرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢]. وقوله: ﴿إِنِ اعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظًا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِثْرًا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَأَن تُصِيبَهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيْبَةً﴾ أى: جذب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر، وإن أصابته محنة يشس وقنط، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: «يا معشر النساء، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقالت امرأة: ولم يارسول الله؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط» (١). وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لاحد إلا للمؤمن» (٢).

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۖ أَوْ بُرُوجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

يخبرتعالى انه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً﴾ أى: يرزقه البنات فقط ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يُزَوِّجَهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِثَاءً﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والانثى، أى: من هذا وهذا ﴿وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا﴾ أى: لا يولد له. فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعل عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى، عليه السلام، من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام، ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام فى الآباء، والمقام الاول فى الابناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

ربع

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ. مَا بَشَأُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا نَمُرُّنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي شيئاً لا يتماهى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوح القدس نَفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» (١). وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً» الحديث (٢)، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل، عليه السلام، وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا نَمُرُّنَا﴾ يعني: القرآن، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: على التفصيل الذي شرع لك في القرآن، ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو الحق القويم، ثم فسره بقوله: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ أي: شرعه الذي أمر به الله، ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع الامور، فيفصلها ويحكم فيها.

(١) لم أقف عليه عند ابن حبان، وهو في شرح السنة للبخارى (٣٠٤/١٤)، رقم (٤١١١).

(٢) الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألبانى.